التوظيف الصوفي ورمزيته في الشعر الجزائري الحديث

ـ الشاعر عبد الله حمادي أنموذجا ـ

Sufi employment and its symbolism in modern Algerian poetry

The poet Abdullah Hammadi as a model

أ.د. الوكال زرارقة *

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
17.06.2023	**20.06.2023**	**26.06.2023**

الملخص:

لقد اتَّخَذت العناصر التُراثية في القصيدة المعاصرة معادلات فنية للتجربة الشعرية ومنها العناصر التراثية (الصوفية) التي اتخذت بُعْدا فنيا في القصيدة المعاصرة بعدما كانت تتخذ في حقيقتها بُعْدا سيكولوجيا ودينيا وفلسفيا. و حظيت التجربة الصوفية في الشعر الجزائري المعاصر باهتمام الشعراء الجزائريين خاصة في فترة الثمانينات من القرن العشرين وما بعدها لِمَا رأوا ما فيها من ثراء فني يُعْطِي لتجربتهم الشعرية وجها تعبيريا متميزا ويحدد معالم رؤيتهم الذاتية والجماعية تجاه ما يعيشونه في واقعهم .ولذلك وجد الشاعر الجزائري المعاصر في التصوف خير ميدان تتفتح فيه ذاتيته وفرديته ، وتحديد معالم رؤيته الفكرية والفلسفية ، ويعد الشاعر عبد الله حمادي من الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين وظفوا الرموز الصوفية للوصول بالخطاب الشعري إلى التساؤل المعرفي والتعدد الدلالي والتنوع الرؤيوي.

الكلمات المفتاحية : الدلالة ، الرمز ، الصوفية ، التجربة ، الشاعر

Abstract:

The Sufi experience in contemporary Algerian poetry received the attention of Algerian poets, especially in the eighties of the twentieth century and beyond, when they saw the artistic richness in it that gives their poetic experience a distinct expressive face and defines the parameters of their personal and collective vision towards what they live in their reality. Therefore, the contemporary Algerian poet found in Sufism The best arena in which his subjectivity and individuality flourishes, and the parameters of his intellectual and philosophical vision are defined.

Keywords: *significance, symbol, Sufism, experience, poet*

****

* المركز الجامعي آفلو **l.zerarka@cu-aflou.edu.dz**

مقدمة:

يُعَدُّ التصوف عنصرا تراثيا وفنيا أعطى للتجربة الشعرية المعاصرة تميزا لتعدد دلالاته ، وتنوع تأويلاته ، وهناك من يرى وجود ارتباط بين التجربة الصوفية والتجربة الشعرية المعاصرة ، نتيجة استعانة الشعراء المعاصرين بالعديد من المعاني والمضامين والرموز الصوفية للتعبير عن انفعالاتهم وإثراء تجربتهم ، وتجسيد أفكارهم وآرائهم.

ويعود ارتباط الشعر بالتصوف إلى طبيعة لغتهما ، وتوافق التجربة الجمالية وتشابهها بين الشاعر والصوفي ،واستخدامهما للخيال والحدس والحلم في تجربتهما و اعتماد أسلوب الرمز والإيحاء في تعبيرهما.

ويعد استغلال الشاعر المعاصر للموروث الصوفي في العملية الشعرية ترجمة لموقفه من واقعه الفكري والحضاري وحتىَّ السياسي والاجتماعي ويبين أهمية الشعر بهذا التوظيف في التغيير الذي تنشده الذات الشاعرة.

وإذا تتبعنا مسار التجربة الصوفية في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر فإننا نجد شعرا صوفيا وشعرا امتزج فيه الصوفي بالديني وشعرا اتخذ من الصوفية و مصطلحاتها دلالات رمزية للتعبير عن التجربة الشعرية ، إلاّ أنّ الموجود من شعر صوفي يعاني من خفوت في سلالته ، ويتما في واقعه إذا ما حددنا حقيقة التجربة الصوفية وماهيتها المعروفة تراثيا . ويمكننا إرجاع هذه الندرة سواء في ارتباط التصوف بالشعر أو الشعر بالتصوف في الشعر الجزائري المعاصر إلى الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاشه المجتمع الجزائري جراء الاحتلال وسياسته القمعية التي دامت لأكثر من عشرة عقود والذي أدى إلى مقاومة الشعب لها بشتى الوسائل والأساليب.

وما وُجِد من شعر جزائري معاصر في هذا الإطار وإنْ كان قليلا فإنّه يرتبط إمَّا بالشعر الديني كما هو عند الشاعر الجزائري **(محمد العيد آل خليفة)** أو برؤية إسلامية للواقع الجزائري كما هو عند **(مصطفى محمد الغماري)** أو برؤية صوفية استغراقية عكست الجانبين الروحي والفنّي كما هو **(عند ياسين بن عبيد)** أو برؤية فنية صرفة كما هو الحال عند (عند عبد الله حمادي) وبعض الشعراء الجزائريين من جيل فترة الثمانينات من القرن العشرين وما بعدها.

1 . التوظيف الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر

لقد كان لظهور الحركة التجديدية في الشعر العربي المعاصر أثر بارز في التشكيل الجديد للقصيدة العربية على مستوى الرؤيا والتشكيل ، وكان للتراث وعناصره دور فعال في ذلك فالعناصر التراثية " لم تمتد امتدادا جافا جامدا وإنّما الامتداد الحيوي الفعّال الذي فجَّر الكثير من الطاقات الروحية التي غذّتها العناصر الدينية ، كما أضفت على المعاني والقيم الفنية عمقا واتساعا جاء نتيجة إثراء المصادر الأدبية التراثية لتجارب الحياة المعاصرة."(1) ولأهمية التُّراث في إثراء التجربة الشعرية المعاصرة مدّ الشاعر المعاصر جسور الاتصال به وتوظيفه واستغلاله بما يخدم رؤيته ونظرته وفلسفته إلاّ أنَّ " علاقة الشاعر المعاصر بهذا التراث هي علاقة استيعاب وتفهم وإدراك واع للمعنى الإنساني والتاريخ للتراث وليست بحال من الأحوال علاقة تأثر صرف."(2) كما أنّ هذه العلاقة تدخل في إطار العوالم الجديدة التي أصبح الشعر العربي المعاصر يعيشها ويعايشها فلم يعد كما كان في القديم " عالما مسطحا يتمكن منه القارئ دون عناء ، فقد غدا عالما سحريا يموج بالحركة والألوان — عالما لا يعترف بالأبعاد والحدود ، إنّه عالم

التخطي والتجاوز والسعي وراء المطلق ، كما أنّه لم يعد خطابا قائما على التأثر والانفعال ، إنَّه في حقيقته خطاب التساؤل والتعدُّد الدلالي ، خطاب القراءة المفتوحة الآفاق المتعددة الأبعاد."(3)

ومن العناصر التُراثية البارزة في القصيدة المعاصرة والتي اتخذت معادلات فنية للتجربة الشعرية العناصر (الصوفية) فقد اتخذت بُعْدا فنيا في القصيدة المعاصرة بعدما كانت تتخذ في حقيقتها بُعْدا سيكولوجيا ودينيا وفلسفيا. وأصْبح الرافد الصوفي من أبرز الروافد التي ساهمت في بناء القصيدة الجديدة وقولبتها. واستحضار الشعر المعاصر للموروث الصوفي وتوظيفه في العملية الشعرية يُعَدُّ " تحقيقا لتواصل فني بجزء من تراثنا الأدبي الروحي الذي صار له امتداد في الحاضر من ناحية ، وهو من ناحية أخرى يُعَدُّ رمز احتجاج على مظالم الاستعمار الاستيطاني لأرضنا."(4) فكان بذلك وجها من وجوه التحدي والتأكيد على الانتماء للتراث الإسلامي.كما أنَّ الشاعر العربي المعاصر أراد من خلال خطابه الشعر الصوفي " أن يتوغل بالوعي الإنساني نحو أعمق معان السمو على تفاهة الحياة وماديتها وحطّتها وأن يخلص الأنا من سجنه ويخرجه من هشاشة الواقع وحلق به في سموات المطلق اللامتناهي بغية تجديد النبض الروح وارتقاء أعلى درجات الصعود نحو المتعالي."(5)

وقد حُظِيَت التجربة الصوفية في الشعر الجزائري المعاصر باهتمام كبير من طرف الشعراء الجزائريين خاصة في فترة الثمانينات من القرن العشرين وما بعدها لِمَا رأوا ما فيها من ثراء فني يُعْطِي لتجربتهم الشعرية وجها تعبيريا متميزا ويحدد معالم رؤيتهم الذاتية والجماعية تجاه ما يعيشونه في واقعهم ، كما أراد الشاعر الجزائري المعاصر من خلال اعتماد التوظيف الصوفي بكلِّ أبعاده القريبة والبعيدة ، الظاهرة و الباطنة في شعره تحيد معالم رؤيته الفكرية والفلسفية التي أصبح البعد الصوفي فيما بعد جزء منها كشف عن جوانب من بواطن التجربة الشعرية " ومن ثمَّة يمكن اعتبار الرؤية الصوفية في الشعر الجزائري الحديث هي بحث عن الرمز الإنساني في معناه الأسمى ومحاولة وصل الذات بهذا المعنى لتأصيل جوهريته بوصفه امتدادا روحيا لأصالة الذات في نشدانها للمتعالي والمثال عبر جدلها الدائم مع الواقع القائم على التأمل والعيان والاستبصار."(6)

وقد أدّى انجذاب الشاعر الجزائري لتوظيف الخطاب الصوفي إلى :

1 . إحداث انقلاب على مستوى نظرته ومفهومه للشعر وغدا الشعر بذلك يمثل "عالما سحريا يموج بالحركة والألوان ، عالما لا يعترف بالأبعاد والحدود ، إنّه عالم التخطي والتجاوز والسعي وراء المطلق ، كما أنّه لم يَعُد خِطابًا قائما على التأثر والانفعال ، إنّه في حقيقته خطاب التساؤل المعرفي والتعدُّد الدلالي والتنوع الرؤيوي وهو تبعا لذلك خطاب التأويل ، والتعدُّد الدَّلالي ، خطاب القراءة المفتوح والآفاق المتعددة الأبعاد."(7)

2 . اتخاذه أداة فنية تعبيرية جديدة من جهة وملاذا روحيا يعوض به شعوره بالإحباط ، وإحساسه الدّائم بالانهزام والغربة في واقع رآه بعيدا عن عالمه المثالي،

3. الوصول إلى حل فردي" لتعاسة الواقع ، ومواجهة مظاهر الظلم والعزلة التي سيطرت على الواقع العربي في القرن العشرين ، وعلى هذا النحو يصبح التصوف بشكل عام رمزا للسمو الروحي على الآلام والهموم وكذا الثورة على العبودية."(8)

ويتجلى التوظيف الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر من خلال التوظيف اللغوي المشبع بالنفحات الصوفية واستدعاء الشخصيات الصوفية ورموزها لما تحمله من ثقل دلالي وكثافة رمزية ،

إلى جانب استمداد روح الخطاب الشعري الصوفي القديم وإسقاطها على الخطاب الشعري المعاصر بما يناسب الموقف والتجربة ليعطي للنص الشعري زخما دلاليا معبرا عن واقع الشاعر برؤية جديدة. وكان للتوظيف الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر دلالات رمزية متعددة من خلال توظيفه للرموز الصوفية ومنها الحب والمرأة والخمرة والسكر والرحلة. ويعدّ الشاعر عبد الله حمادي من الشعراء الجزائريين الذين ساهموا في عملية تحديث القصيدة الجزائرية المعاصرة مستغليين الأدوات الفنية في ذلك وخاصة على مستوى المضمون . وكان للتوظيف الصوفي حضور بارز في تعبير الشاعر عن تجربته ، وتجسيد رؤيته.

و جد الشعراء الجزائريون المعاصرونن للتعبير عن معاناتهم و آمالهم في العوالم الصوفية من حب وسكر و رحلة منفذا " محاولين الهروب من عوالمهم المحيطة بهم أملا في الخلاص ، و بحثا عن المعادل الوجداني لكياناتهم الممتلئة بالسمو والامتلاء و بوصفها أيضا الملاذ الروحي لها ."(9)

وتينْصَبُّ توظيف الشاعر الجزائري المعاصر للرموز الصوفيةعلى هدف واحد هو التحريض " على الثورة و مقاومة طاحونة المادة بالرجوع إلى حال المكابدة و المجاهدة ."(10) فالذات الشاعرة تعمل من خلال توظيفها للفضاءات الصوفية " على إيجاد منفذ لتعاستها و حسها المأساوي في عالم يضيق باستمرار و لا يتسع لها حس المتعالي المطلق الذي هو صفة مميزة للمتصوفة ومخرج وجداني للذات الشاعرة من مأزقها الوجداني"(11)

ومن الرموز الصوفية التي كان لها حضور مكثف في الشعر الجزائري المعاصر رمز الحب والمرأة ، ولذلك نجد هذا الرمز عند الشاعر (عبدالله حمادي) يأخذ دلالات متعددة تعبر عما يعيشه الشاعر في واقعه الذاتي والجماعي .فهو يوظف رمز "ليلى" ليُعَبّر عن واقع أمته المثخن بالجراح ، فـ " ليلى" المعشوقة عند العذريين مثّلت لديهم قِبلة الحب والوفاء والطهر والتمتع مما جعلها تحظي باهتمام الشعراء المعاصرين ويتخذونها " القناع الرمزي القابل للتشكل في كل صورة يراها المحب ، وهي المعادل الغنوصي للتجلي ، لأنّها رمز العفة والجمال والأنوثة العربية"(12) ، و"ليلى" (عبد الله حمادي) تمثل لديه نفس المشاعر والقيم العاطفية ولكنّها المحبوبة التي تداعت عليها المصائب والويلات ، وحاصرتها الخطوب والمؤامرات ، ونالت من جسمها سهام الغدر والخيانات ، فلم يترك له واقعها المريض أيّ أمل في لقائها ووصالها ولكن عزاءه الوحيد هو الرجوع إلى ما كان بينه وبينها في الماضي ليستحضر لحظاتها المشرقة ، وليالي وصالها الممتع.

فالدلالة الرمزية في قصيدة (عبد الله حمادي)" مذكرة محرومة لأبي محجن الثقفي" سياسية تعكس ثورة الشاعر على الواقع السياسي الذي وصلت إليه الأمة العربية الإسلامية من خيانة واستسلام وخنوع وخذلان ، وانسحاب من الركب الحضاري الإنساني الذي رادته لقرون:

أغباش ليلى! نناجيها تودنا
بعد المحاق من الإجهاض والتعب
ومبسم الغيظ من صحراء مزمنة
حمراء! خضراء! من أصل بلا نسب
صماء تنزف حرّ الثدي من شفة
ذرّ العزاء عليها لعنة السحب
تنقاد عارية .. في الوحل مرمية!
قد هدّها الزحف من دوامة السلب (13)

وهذا الواقع البائس الذي تعيشه أمته يصيبه بالإحباط وعدم الثقة والتمزق النفسي بين ماضي أمته الزاهر وحاضرها المرتد:

مات الحنين، وغاب الأفق عن قدمي

وقد تيتّم محصولي من النجب
فليت طيف من الأوهام يلهفنا
غيب البراق وبدر الأمس في الخطب.(14)

فالمرأة بصفة عامة وليلى بصفة خاصة عند الشاعر (عبدا لله حمّادي) تمثل معادلا وفضاء روحيا حالما فهي " تمثل الأنموذج لجمال العالم الذي هو امتداد لجمال الله ، فالجمال محبوب لذاته."(15) وفي توظيفه لرمزية المرأة نجد "ليلى" الشاعر (عبد الله حمادي) تحمل دلالة رمزية غير التي حملتها " ليلى" عند شعراء جزائريين آخرين أمثال (الغماري) وإن اشتركتا في رمزية المعاناة والألم ، فليلى(الغماري) مثلت عنده العقيدة الإسلامية المغيبة ، أمّا ليلى (عبد الله حمادي) فهي تمثل " رمز المرأة التي تحفل بالزمان والمكان فهي الذاكرة العربية الملأى بالنكسات والصراعات ، والحكايات المثيرة."(16) ومن ثمّة فهي تحمل دلالة رمزية قومية تعكس العذابات التي يعيشها الشاعر من جراء الواقع المرير الذي تعيشه أمّته من ذل وهوان ، فرمزية "ليلى" عنده هي الذات العربية هي الوطن الذي تتجاذبه نزعتان ، نزعة الغضب على أبنائه الذين تقاعسوا على نصرته وتحريره ، ونزعة التأسف على ما كان عليه في ماضيه من عزٍ وسؤدد وما آل إليه من انتكاسات في حاضره:

ينتابني العشق يا ليلى بأنــهار فتستفز خيول الروم أســراري
الشعر ليلى لو استقرت عاطفتي وطول عشق إلى مصداق أفكاري(17)

وفي ديوانه " قصائد غجرية" تتأكد لدينا الدلالة الرمزية في شعره الذي وظف فيه رمزية المرأة فهي تشكل عنده" استرجاعا للتراث وإحياء لجراحات الماضي العربي ، والأندلسي على وجه الخصوص."(18) وتتجلى المرأة في شعره بدلالة رمزية توضح مأساته وغربته" فالغجرية هي تلك المرأة التي تحمل ملامح التاريخ العربي المفقود أيّام العز الأندلسي، حيث كانت الحضارة العربية الإسلامية في أوّج عطائها، كما تحيلنا كذلك إلى الحركة والتنقل المستمرين لهذه المرأة بحثا عن وجودها وذاتها المفقودة."(19) فالشاعر بتوظيفه للغجرية يوظف فعل الغياب الذي يعيشه ، وعدم الاستقرار النفسي الذي يعانيه ، ومرارة الاغتراب التي يتذوقها باستمرار مُجْبَرًا ، فهو لا يحس بوجوده وحريته وذاته في وطنه المسلوب المُغتصب المهان ، لكنّه رغم إحساسه بغياب أمته وغياب عِزّها ، ينشد انبعاثها و عودتها ولقاءها ،وإحداث التغيير في نمطية الحياة الحاضرة فيها. وعلى نهج الشعراء الصوفيين يحاول الشاعر (عبد الله حمادي) تجاوز محنته وغبنه النفسي عبر رحلة البحث عن السعادة والاستمتاع بلقاء الحبيبة الضائعة المتعبة التي أنهكتها مظالم الزمن وغيبت وضاءتها ونظارتها:

(...) سفري..! وما سفر على خيط الضيا
إلاّ تطاير جذوة من موقدي
سفر تمطّط في اصطياد مودّة
سمراء تكمن في خواطر مولدي
سمراء أذبلها السّواد فأومأت
بضفائر شمطا وحرقة مشهد(20)

وفي موضع آخر نرى الشاعر (عبد الله حمادي) يوظف رمز المرأة ليعبر من خلاله عن إتحاده المطلق وفنائه في الذات الإلهية فيتخذ من المحسوس سبيلا إلى اللامحسوس ، ينتقل بنا من عالم الناس إلى عالم الله ، لتبرز المرأة في جوهرها الأنثوي للدلالة على الحب والجمال الإلهيين لما تحمله من مواصفات تجعلها صالحة لتوظيف مجازي مشبع بدلالات رمزية متعددة . فانجذاب الشاعر الشديد نحو محبوبته وتعطشه لها هو في حقيقته انجذاب لروحه نحو مصدرها الأول ومحاولة

منه إلى التحرر من قيود المادية وأغلالها والتحرر " من الوجود بشروطه المادية إلى الوجود الروحي المثال ، التحرر من الزمن الراهن إلى الزمن المستقبلي (المطلق) الذي يجعل المرء ينخرط في أجواء روحية تشعره بالسكينة ، والطمأنينة فكأنّه في صلاة."(21) يقول الشاعر عبد الله حمّاد ي:

حبيبتي النور طهر فالثمي أغصانه والحزن وعد فاركبي شطآنه

ويـد الإله حقيقـة أزليـة فتبرّجي واستسمحي أحضانه(22)

ولتأكيد هذه الدلالة الرمزية نفسها يقول الشاعر في موضع آخر:

فكيف أقاوم فعل العشق وطلعته

(..) أنا المخمور وخمرته

كنت قديـما سكنـني

شيء من فضـل غوايته

فالليل لليلى يسكنـني

لحنا يرتاب ويرهقني

ويمد الجسر فيعـبرني

وأغض الطرف فيسلبني

فأنا المعشوق وعاشقـه

وأنا المقتول وقاتلـه(23)

ويمزج الشاعر (عبد الله حمادي) بين تجربته الشعرية ومواجيد الصوفيين للكشف عن معاناته مع الحبيبة ليصل بنا إلى أنّ هذه الحبيبة المتمنعة والغائبة المُغَيَّبة غير ميئوس منها ، فهناك أمل للقائها ووصالها والتحول من حالة الغياب إلى حالة الحضور، وتجود الحياة مرَّة أخرى في الحاضر كما جادت به في ماضيها الحافل بالسؤدد والمجد والانتصارات:

وأنت اكتمال الفدى والمرامي

نفضت اكتواءة جسم مسجى

على شفتيك فخذ باحتشامي

هصرت انفعالة صحو مرجى

على رحتيك فجد بالغمـام(24)

والشاعر في هذه الحال كقيس بن الملوح الذي اكتوى بنار حب ليلى ،التي وإن غدت بعيدة عنه في واقعه المادي ، إلاّ أنّها قريبة منه في واقعه الروحي . فالشاعر (عبد الله حمادي) في تعامله مع واقعه يحمل في أشعاره زخما من المعاناة والاغتراب واليأس الممزوج بالأمل فهو صاحب قضية ، وقضيته هي وطنه وأرضه التي حيل بينه وبينها ولكنّه لم ييأس من إسقاط هذا الحائل والحاجز فيعود وطنه (حبيبته) إلى حضنه ويستقي من ماء الوصال ويربط حاضره بماضيه. وهكذا فإنّ الدلالة الرمزية في شعر (عبد الله حمّادي) الموظف لرمز المرأة بصبغتها الصوفية سياسية قومية أراد بواسطتها إبلاغ دعوته بشكل حداثي لتكسير المألوف في الخطاب الشعري الجزائري واختراق لغة التداول والتواصل متقمصا وجدانات الصوفيين وأحوالهم ورحلاتهم ليستنطق باطنه المثخن بجراح وآلام حاضره ويتخطّاه إلى عالم الحب الإلهي والفناء الروحي والتوحد الوجداني لعلّه يجد في ذلك لحظات السكون الخالد ، والمتعة الأبدية ، والحياة البرزخية بين واقعه المثالي الذي يحلم به وواقعه اللامثالي الذي يعيشه. ولذلك فإنّ " الكتابة الشعرية لدى الشاعر عبد الله حمادي ليست من أجل التعبير عن تمظهرات العالم المرئي بل هي محاولة لزعزعة العالم من خلال إعادة بنائه وفق تصور رؤياوي مخصوص، تصور يحمل وهج تجربة صوفية."(25)

ويوظف الشاعر (عبد الله حمَّادي) رمزا صوفيا آخر هو الرحلة والسفر ويأخذ عنده تجليات رمزية مفعمة بالدلالات المتعددة ، ففي هذه الأبيات التي يقول فيها :

رحلت مع الدرب عبر البروج

وأومأت من شرفة للأنام
و أهرقت عطرا من المعجزات
بريء السراب... غيور الحطام
(..) أفتش دوما ، أفتش أفنى
وأبحث ، أطرق ، تحت الكلام
أشطآن ذاك المسار البعيد
أغيثي وأبقي رحيق الغرام
سألحق نجمي برغم انكساري
وألقى جلال المدى بالقيام(26)

تتجلى لنا دلالة البحث عن الذات في واقع لا تجد فيه نفسها حاضرة ،دلالة البحث في رحلة عن الحب المفقود الذي يتعلق فيه الحبيب بحبيبته تعلقا مثاليا للوصول إلى قمة السعادة ، رحلة يسعى من خلالها الشاعر تجاوز عالمه المادي المرئي إلى العالم الروحي اللامرئي حيث " تمتلك الذات الشاعرة حسا ما ورائيا تمتزج فيه الرؤيا بالقلب، بالمدركات الباطنية في أشدِّ حالاتها هدوءا وسكينة ، وتعبر عن هذا الحس بانفعالاتها الوجدانية النابعة من كيان يذوب في مسافات لا متناهية من اللاوعي كما طرأ عليها طارق جواني يحرك فيها دوافع الرغبة في الإمساك بلحظات الخلود السرمدية وتجريد العالم من حسيته."(27)

كما تتجلى لنا من خلال الأبيات السابقة لـ (عبد الله حمادي) دلالة البحث عن الخلاص من خلال توظيفه لفعل الحركة وعدم الخضوع والاستسلام (أهرقت- أفتش- أبحث- سألحق) وفك قيود الإحباط والانكسار للالتحاق بغايته والاتحاد بها وبذلك " يقع الشاعر بين قطبين هما (البدء والخلود) يرتد الشاعر إلى عالم الخلود اللامتناهي نجده ما ينفك يلتصق بعالم البدء ، وهذا يتولّد عنه الصراع ، والتوتر الحاد الذي يعانيه الشاعر في رحلته إلى الذات الباطنية المشرقة باللامرئي."(28)وتتأكّد لنا هذه الدلالة في البحث عن الخلاص في قول الشاعر:

رحلت على شفة للظلام
تهادت بها معلقات الفكر
فألفيت سمع الشعور المسجى
وراء اغتراب يعاني الهجر
تدافع ساحله المستفيض
بقيظ العباب الرهيب الجمر
ملكت به السر فاستصغرتني
طيور الملا بأعلى الشجر.(29)

فالذات الشاعرة في هذا الموقف " تتقرّب من العالم الأسمى وتلتحم به لما تلتمس فيه من جدوى معاناتها ، وما يعوضها عن فراغ الواقع وهشاشته ، وحِطَّته ، ومن أجل ذلك فهي ترغب دائما في إيجاد معان أخرى للإنسان حتى وإنْ استمدت هذه المعاني من فض المجهول واللامعقول."(30)

ويصرح الشاعر (عبد الله حمّادي) في شعره المفعم برمزية السفر والرحلة عن سفره الدّائم بنغمة ممزوجة بالحزن والمرارة في البحث عن واقع الحب وذات المحبوب الذي شوّه الآخر معالم جماله ، وهذا الشعر يحمل كذلك دلالة الاحتقان المستوطن في داخل الذات الشاعرة. وقد مزج الشاعر رحلته هذه " في طابعها المكاني المباشر بحالة النوستاليجيا الصوفية التي تتمثل في الحنين إلى الكينونة التي هي منتهى السائرين شوقا إلى الوجود الحق وإلى العود إلى المرجع والمآل الكلي."(31) يقول الشاعر:

(..)..! وما سفري على خيط الضيا
إلاّ تطاير جذوة من موقدي،
سفري تمطّط في اصطياد مودّة
سمراء تكمن في خواطري مولدي
سمراء أذبلها السّواد فأومأت
بضفائر شمطا وحرقة مشهد

بركوبه الأقدار فوق سحابه
حبلى ببركان التحدِّ المزبد(32)

وهذا الشعور المشبع بهذه القيم الروحية تجاه وطنه الأكبر (أمّته) يحمل " طابعا عاما يميز ما عرف به الصوفية من نزوع إلى الإنسانية التي لا يحدُّها اختلاف الأجناس والقوميات."(33) وشعور الشاعر وإحساسه هذا المليء بالحزن والمرارة والعذاب والغربة ناتج عن طغيان الحيوانية المادية التي تملّكت واقع الناس وداست على القيم الخيرة من أجل إشباع الغرائز والشهوات ، فأفرزت نزيفا مأساويا كان الشاعر أقرب الذوات إلى معايشته وتلمسه " وكأنّه درامي بطبعه وبما أنّه لم يكن بإرادته امتلاك قدره فهو يجابه مصيره إمّا بالهروب ، وإمّا بالتسامي عن طريق الإبداع بحثا عن قيم جديدة تبحث فيها الذات عن معادلها الفكري والروحي والوجداني ، أو للتخفيف من حدة المعاناة التي تسببها غريزة التطلع في الإنسان الرابضة في لا وعيه و(أناه البدائي)"(34)

الخاتمة :

تأخذ دلالات التوظيف الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر خطا واحدا وفضاء دلاليا متقاربا يجسد واقعا يعيشه الشاعر كلُّه إحساس بالعزلة و النفي و الاغتراب و استلاب للمبادئ والقيم والمثل التي تحقق للإنسان إنسانيته ، و تحفظ له حقوقه و كرامته. كما تجسد صراعا فكريا و حضاريا بحثا عن الثبات و تجاوز للمتغير فيظهر الالتزام بالمبادئ واللا التزام ، و التعلق و التمسك بها و السعي للبوح بها و الإعلان عنها و غرسها في أرض الواقع و الذود عنها ، كما تظهر هذه الدلالات ما ينتاب الذات الشاعرة من يأس وإحباط في التعامل مع واقعها في كثير من المواقف ، و ثورة و انتصار في مواقف أخرى إلا أن عالم الأمل في تحقيق الأهداف و الغايات يبقى قائما لأن الإيمان و اليقين بالبقاء دائما هو للأصلح.

الهوامش :

1. ربيعي محمد علي عبد الخالق ، أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر ، 1989م ، الاسكندرية ، ص.193.
2. إسماعيل عز الدين ، الشعر العربي المعاصر – قضاياه ومظاهره- ، ، ط3 ، دار العودة ، بيروت ، 1981م ، ص.30.
3. هيمة عبد الحميد ، الخطاب الصوف وآليات التحويل ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2008م ، ص. 157.
4. حشلاف عثمان ، الرمز والدلالة في شعر المغرب العرب المعاصر ، ، منشورات التبيين الجاحظية ، الجزائر ، 2000م. ص 45 .
5. فيدوح عبد القادر ، الرؤيا والتأويل ، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1994م ، ص. 56.
6. فيدوح عبد القادر ، الرؤيا والتأويل ، ص.52.
7. هيمة عبد الحميد ، الخطاب الصوفي وآليات التحويل ، ص. 163.
8. هيمة عبد الحميد ، الخطاب الصوفي وآليات التحويل ، ص. 199.
9. فيدوح عبد القادر ، الرؤيا والتأويل ، ص.53.
10. حشلاف عثمان ، الرمز والدلالة في شعر المغرب العرب المعاصر ، ص.48.
11. فيدوح عبد القادر ، الرؤيا والتأويل ، ص. 77.
12. إسماعيل عز الدين ، الشعر العربي المعاصر- قضاياه ومظاهره- ، ص. 414.
13. حمادي عبد الله ، ديوان تحزّب العشق ا ليلى ، دار البعث قسنطينة (الجزائر) ، 1982 ، ص. 159.
14. المصدر نفسه ، ص.163.
15. كعوان محمد ، شعرية الرؤيا وأفقية التأويل ، ط1 ، إتحاد الكتاب الجزائريين ، الجزائر ، 2003م.ص 31
16. المرجع نفسه ، ص.56.
17. حمادي عبد الله ، تحزب العشق يا ليلى ، ص. 209-208.
18. كعوان محمد ، شعرية الرؤيا وأفقية التأويل ، ص. 117.
19. المرجع نفسه ، ص. 25.
20. حمادي عبد الله ، تحزب العشق يا ليلى ، ص. 183.
21. هيمة عبد الحميد ، الخطاب الصوفي وآليات التحويل ، ص. 229.
22. حمادي عبد الله ، قصائد غجرية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983م ، ص. 81.
23. حمادي عبد الله ، البرزخ والسكين ، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2000م-2001م ، ص.154.
24. حمادي عبد الله ، تحزب العشق يا ليلى ، ص. 190-189.
25. كعوان محمد ، شعرية الرؤيا وأفقية التأويل، ص.128.
26. حمادي عبد الله ، تحزب العشق يا ليلى ، ص. 189-188.
27. فيدوح عبد القادر ، الرؤيا والتأويل ، ص. 76-77.
28. هيمة عبد الحميد ، الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري ، دار هومة ، الجزائر ، 2005م، ص 202.
29. حمادي عبد الله ، تحزب العشق يا ليلى ، ص. 169-168.
30. فيدوح عبد القادر ، الرؤيا والتأويل ، ص. 62-63.
31. نصر عاطف جودة ، الرمز الشعري عند الصوفية ، ص. 196.
32. حمادي عبد الله ، تحزب العشق يا ليلى ، ص. 185.
33. نصر عاطف جودة ، الرمز الشعري عند الصوفية ، ط3 ، دار الأندلس ، بيروت ، 1983م، ص 196. .
34. فيدوح عبد القادر ، الرؤيا والتأويل ، ص. 58.

المصادر والمراجع

1. إسماعيل عز الدين ، الشعر العربي المعاصر – قضاياه ومظاهره- ، ، ط3 ، دار العودة ، بيروت ، 1981م
2. حشلاف عثمان ، الرمز والدلالة في شعر المغرب العرب المعاصر ، ، منشورات التبيين الجاحظية ، الجزائر ، 2000م.
3. حمادي عبد الله ، قصائد غجرية ،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983م.
4. حمادي عبد الله ، البرزخ والسكين ، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2000م-2001م .
5. ربيعي محمد علي عبد الخالق ، أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر ، ، الاسكندرية ، 1989م.
6. فيدوح عبد القادر ، الرؤيا والتأويل ، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1994م .
7. كعوان محمد ، شعرية الرؤيا وأفقية التأويل ، ط1 ، إتحاد الكتاب الجزائريين ، الجزائر ، 2003م.
8. نصر عاطف جودة ، الرمز الشعري عند الصوفية ، ط3 ، دار الأندلس ، بيروت ، 1983م.
9. هيمة عبد الحميد ، الخطاب الصوف وآليات التحويل ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2008م .
10. هيمة عبد الحميد ، الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري ، دار هومة ، الجزائر ، 2005م،